الأبعاد العرفانية لخطاب الحال في شعر أبي الحسن الششتري الأندلسي؛ المحبة أنموذجا

The cognitive dimensions of the state discourse in the poetry of the Andalusian Abu Al Hassan Al-Shashtari, love as a model

ط.د. أمال زعامطة[1]* / أ.د. حميد قبايلي[2]
Amel Zaamta[1] / Pr.Hamid Kebaili[2]
مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي الواقع والمأمول جامعة أم البواقي.
جامعة العربي بن مهيدي –أم البواقي (الجزائر)
Larbi Ben M'hidi university –Oum El Bouaghi (Algeria)
amel.zaamta@univ-oeb.dz [1] / hamidkebaili1961@gmail.com [2]

تاريخ الإرسال: 2023/08/07	تاريخ القبول: 2023/09/12	تاريخ النشر: 2023/12/15

ملخص البحث

تعد مسألة الأحوال من كبرى المسائل التي عرض إليها علماء التصوف وجعلوا لها مكانا خاصا في هذه الطريق، ويستعمل الصوفيون هذا المصطلح للدلالة على ما يَرِد على قلب السالك في طريقه إلى الله تعالى؛ وهي من الهبات التي يمن بها الله على عباده دون جهد أو سعي منهم، والأحوال عند المتصوفة متعددة ومختلفة ومن أهمها : حال المحبة الذي يعني ميل العبد بكليته إلى محبوبه وإيثاره له على نفسه في كل شيء، وقد حاول الشعراء الصوفيون نقل هذا الحال في أشعارهم بطريقة بلاغية؛ ومن ذلك نجد أبا الحسن الششتري (ت668هـ) الذي يعدّ من أبرز شعراء التصوف في القرن السابع الهجري في الأندلس، الذي حاول من خلال ديوانه نقل هذه التجربة الروحية بطريقة عاطفية ووجدانية، وسنحاول في هذه الورقة البحثية تحليل بعض النماذج المختارة من أشعاره التي عرضت لحال المحبة.

الكلمات المفتاح: محبة، حال، ششتري، تصوف.

Abstract :

The question of states is one of the big issues tackled by the Sufi scholars who attributed a special position for it in their creed. In this line, the Sufis use the term "state" to refer to what is in the heart of the disciple in his path towards God. It is among the donations God granted to his servants without their efforts.

* أمال زعامطة: amel.zaamta@univ-oeb.dz

For the Sufis, the states are many including the state of love which refers to the servant's altruism and full inclination towards his beloved. The Sufi poets tried to transfer this state in their poems in an aesthetic and rhetoric method that shall describe their spiritual experience for the receiver. Among these poets, we find Abu Al Hassan Al-Shashtari (668 H) who is one of the prominent Sufi poets of the 7th Hijri century in Andalusia. This poet tried to transfer the spiritual experience through his collection in an emotional way. Thus, this paper shall analyze some models chosen from his poems that shed light on the state of love.

Keywords: love; state; Al-Shashtari; Sufism.



مقدمة:

اهتم أبو الحسن الششتري (ت 668هـ) بالعديد من المسائل الصوفية والتي حاول نقلها من خلال أشعاره بطريقة بسيطة تكون قريبة من ذهن المتلقي، ومن هذه القضايا نجد قضية الأحوال الصوفية التي شغلت العلماء والشعراء الصوفيين نظرا لأهميتها البالغة في هذا التوجه، وتعدّ المحبة من أساسات هذه الأحوال وأهمها في تجربة المتصوف السالك لطريق الحق؛ وهي من الأحوال التي يهبها الله لعباده دون جهد أو اجتلاب حتى يقربه منه ويمنحه الرضا، ولا تتحقق المحبة للسالك إلا من خلال إيثار المعبود على نفسه في كل شيء والتوجه بكليته له وبقلب خال من شوائب الحياة المادية، والمحبة عند المتصوفة تكون دون تكلف من العبد وليس لهم منها غاية أو غرض وهذا الفرق بين محبتهم لله ومحبة غيرهم له.

حاول الششتري من خلال ديوانه نقل مختلف التجارب الروحية التي عاشها أثناء ورود حال المحبة على قلبه، فتغنى في أشعاره بمحبته الكبيرة لمحبوبه في قالب عاطفي وبلغة غزلية رقيقة منحت لأشعاره بعدا وجدانيا خاصا، ومن هذا المنطلق ركزت هذه الورقة البحثية على مجموعة من العناصر هي:

1. مفهوم الحال في اللغة والاصطلاح.
2. مفهوم المحبة.
3. ترجمة أبي الحسن الششتري.
4. حال المحبة عند الششتري.

والهدف من هذه الدراسة هو محاولة كشف الأساليب والطرق التي عرض بها الششتري حال المحبة، وتبيان أهميته في تجربته الصوفية، وقد انطلقت الدراسة من مجموعة من التساؤلات لعلّ أهمّها:

ما المقصود بالأحوال عند الصوفية؟

وماذا تشكل المحبة في حياة السالك لطريق الحق؟

ما هي أبعاد توظيف الششتري لحال المحبة في أشعاره؟.

1. مفهوم الحال في اللغة والاصطلاح:

أ. لغة:

اتفقت المعاجم العربية على تعريفات متقاربة للفظة الحال فقد وردت في لسان العرب لابن منظور في مادة (ح، و، ل) ويقول فيها: "حالات الدهر وأحواله: صروفه. والحال: الذي أنت فيه... والحال كنية الإنسان، وهو ما كان عليه من خير أوشر"[1]، فالحال هنا مرتبط بالهيئة والزمان. ويعرّفه الجرجاني في معجمه بأن "الحال في اللغة: نهاية الماضي وبداية المستقبل"[2].

والملاحظ من التعريفات اللغوية السابقة أن الحال مرتبط بهيئة الإنسان وتميّزه بصفة التنقل والتغير وعدم الثبات في هيئة واحدة.

ب. اصطلاحا:

يُعرّف الحال في الاصطلاح على أنه "ما بين هيئة الفاعل أو المفعول به لفظا نحو: ضربت زيدا قائما، أو معنى نحو: زيد في الدار قائما"[3]، فالحال إذا عند اللغويين هو اسم نكرة منصوب يأتي ليبين هيئة صاحبه أثناء وقوع الفعل، وقد ربط العلماء اللغويون الدلالة اللغوية بالدلالة الاصطلاحية للكلمة في هذا التعريف.

أما الحال عند الصوفية فيحمل معنى من الدلالة اللغوية والاصطلاحية وقد اتفق الصوفيون على تعريفات متماثلة له؛ فنجد ما أورده الطوسي في قوله بأن الحال هو "ما يحل بالقلوب، أو ما تحل به القلوب"[4]، ويعرفه الجنيد بأنه "نازلة تنزل بالعبد في الحين، فيحلّ بالقلب من وجود الرضا والتفويض وغير ذلك، فيصفو له الوقت، في حاله ووقته ويزول"[5]؛ فالحال عند الصوفية هو من المعاني التي ترد على القلب من غير تعمد من العبد أو اكتساب؛ أي أنه هبة من هبات الله تعالى التي يكرم بها عبده من غير أن يفكر بها أو يسعى إليها، وتعدّ الأحوال من الحالات العارضة على السالك أي أنها لا تدوم في نفسه وهذا هو الفرق الجوهري بين الحال والمقام عند الصوفية فإذا دام الحال واستمر يسمى حينئذ مقاما.

وتعد مسألة الأحوال عند الصوفية من المسائل الكبرى التي قيل فيها الكثير، وقد تعددت درجاتها واختلفت الآراء فيها، إلا أننا نجد أن أغلبيتهم اتفقوا على أن الأحوال التي ترد على العبد في طريق التصوف هي ما ذكرها الطوسي في قوله: "وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات كالمقامات التي ذكرناها، وهي مثل المراقبة والقرب، والمحبة، والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة وغير ذلك"[6]، والأحوال عند المتصوفة هي من الهبات التي ترد على قلب العابد دون مجاهدة أو طلب أو إلحاح، وإذا ما حلت عليه وحضرت في نفسه لا يستطيع دفعها أو الإعراض عنها، فعليه أن يدرك أنّ هذا الأمر هو فضل ومَنٌّ من الله وعليه فقط أن يقيم على ذكر الله حتى ينال ما يقربه منه، فينتشله هذا الحال من الغفلة والعوالم المادية إلى الإقبال على طريق الحق بصدق التوجه وبكل جوارحه حتى ينال ما يصبو إليه.

ويرى الصوفية أن صاحب الحال مترقٍ في حاله أي أنه يتنقل من حال إلى حال؛ فكلما بلغ السالك حالا من الأحوال سابقة الذكر حلّ به الحال الذي بعده ولكلّ حال منها مكانة تقرب العبد من معبوده، ومن ذلك حال المحبة التي تعد من أسمى العلاقات والأحوال التي تجمع بين السالك وربه وبين الحبيب ومحبوبه، وقد أفرد الصوفيون للمحبة مجالا كبيرا للحديث عن هذه العلاقة المقدسة الخالية من أي منفعة أو غاية.

2. تعريف المحبة:

تعدّ المحبة أصل الأحوال وأساسها فهي التي تقود السالك للمعرفة؛ والمعرفة تقود للمحبة فكلاهما وجهان لعملة واحدة، وهذا ما جعل من الصوفيين يهتمون كثيرا لهذا الموضوع وقد حاولوا نقله لنا عبر كتبهم وأشعارهم؛ لأن المحبة في نظرهم هي الطريق الوحيد والصحيح الذي يقودهم إلى تحقيق المعرفة والقرب من الله تعالى وبالتالي تحقيق الغاية التي يصبو لها كل سالك لطريق الحق. والمحبة من المنح والهبات الإلهية التي يمنّ بها الله على عبده دون سعي أو مجاهدة منه لاكتسابها واجتلابها، والحال نفسه في محبة الله لعبده فهي اختصاص من الله لعباده الذين يحبهم ويحبونه، ولا يختلف المعنى اللغوي عن المعنى الذي أورده الصوفية في مؤلفاتهم.

أ. لغة:

هي "الحبّ أيضا المحبة وكذا (الحِبُّ) بالكسر. والحِبُّ أيضا الحبيب ويقال (أحبّه) فهو (مُحَبٌّ) و(حَبَّهُ) يحبُّه بالكسر فهو (محبوب). و(تحببَ) إليه تودد وامرأة (مُحِبَّة) لزوجها و(مُحِب) أيضا. و(الاستحباب) كالاستحسان. قلت: (استحبه) عليه أي آثره عليه واختاره... واستحبه أَحبَّه ومنه (المستحبّ)و(تحابوا) أحبّ كل واحد منهم صاحبه"[7]، والمحبة من "(تحابوا) أحب بعضهم بعضا. وفي الحديث (تهادوا تحابوا)، (تحبب) إليه. تودد وأظهر الحب"[8]، فالمحبة في المعاجم اللغوية تصب في معنى واحد فهي مشتقة من الحب وهو الود والاستحسان والإيثار.

ب. اصطلاحا:

تعددت التعريفات الاصطلاحية للمحبة فنجد أنها "انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء: من صفات ذاتية. أو إحسان، أو اعتقاد أن يحب المستحسن ويجرّ إليه الخير. فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه محبوبا، وتعد الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالا عند المحب، فإذا قوي هذا الانفعال صار تهيجا نفسانيا، فسمي عشقا للذوات، وافتتانا بغيرها"[9]، فالمحبة من الانفعالات النفسية التي تنشأ عند الانسان نتيجة الاستحسان والميل لشيء أو شخص ما وقد يترقى هذا الانفعال ليصير في درجات أعلى من المحبة.

وبهذا تظهر المحبة على أنها "عاطفة واحدة أو حقيقة واحدة العين، تتطور وتتصعد، وفي كل مرحلة من مراحل تصعدها تتخذ اسما: الحب، الهوى، العشق، الود، الغرام، الهيام..."[10]، فهي تترقى في نفس الإنسان حسب ما تتركه فيها من شدّة وقوة في الانفعالات الصادرة عنه.

وقد عرّف العلماء والباحثون في مجال التصوف حال المحبة ومن ذلك ما أورده الكلاباذي من تعريفات لبعض المتصوفة، ومنهم من يقول أن المحبة هي "ميل القلوب. معناه أن يميل قلبه إلى الله وإلى ما لله من غير تكلف، وقال غيره. المحبة هي الموافق معناه الطاعة فيما أمر والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدّر. قال محمد بن علي الكتاني: المحبة الإيثار للمحبوب. قال غيره: المحبة إيثار ما تحب لمن تحب قال أبو عبد الله النباجي: المحبة لذة في المخلوق، واستهلاك في الخالق. معنى الاستهلاك أن لا يبقى لك حظ ولا يكون لمحبتك علة ولا تكون قائما بعلة"[11]، فالمحبة عند أصحاب التصوف هي ميل القلب بكليته إلى الله وحب كل ما يقرب إليه والابتعاد عن كل ما نهى عنه والرضاء بما قضاه وقدّره، ويشترط عندهم أن تكون محبة العبد للمعبود خالية من كل غاية أو منفعة أو تكلف.

وقد انطلق المتصوفة من تعريف حال المحبة مما ورد في القرآن الكريم من آيات تحدث فيها الله عز وجل عن محبته لعباده ومحبتهم لهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ﴾ البقرة (165)، يتحدث الله عز وجل في هذه الآية عن محبة المشركين لآلهتهم التي جعلوها متساوية مع الله عز وجل، كما تحدث عن شدة محبة المؤمنين لله محبة خالصة له دون غيره، فقد أورد الصوفية هذه الآية للدلالة على حب العباد للمعبود.

وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿قُل إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آل عمران (31)، وفي هذه الآية الكريمة تحدث الله عن محبة عباده له التي تكون مربوطة باتباع أوامره واجتناب ما نهى عنه ثم أتبعها بمحبته لهم التي تكون بمغفرة ذنوبهم والعفو عنهم.

ويقول جلّ وعلا أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ المائدة (54)، يخاطب الله تعالى المشركين المرتدين عن دينهم بأنه سيأتي بأمة يحبها تعز هذا الدين وترفع رايته، وقد ذكر الله في هذه الآية محبته قبل محبة عباده.

ويرى الجنيد البغدادي أن "الناس في محبة الله عزّ وجلّ عام وخاص. فالعوام أحبوه لكثرة نعمه، ودوام إحسانه، إلا أن محبتهم تقل وتكثر. وأما الخواص فأحبوه لما عرفوا من صفاته، وأسمائه الحسنى، واستحق المحبة عندهم، لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم"[12]، فحب العامة لله نابع عن فضله تعالى عليهم ودوام نعمه وهذا الحب فيه نوع من المنفعة والغاية فقد يكثر بكثرة النعم وقد يقل، أما حب الخواص وأهل التصوف منهم فحبهم لله خال من أي منفعة أو غرض لأن "كل محبة كانت لغرض، إذا زال الغرض زالت تلك المحبة"[13]، ولهذا جعل الخواص محبتهم لله بلا نيل ولا جزاء.

وللمحبة مكانة كبيرة عند العارف ذلك أنها "تعلق القلب بين الهمة والأنس، في البذل والمنع، على الإفراد. والمحبة أول أودية الفناء والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو. وهي آخر منزل تلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة وما دونها أغراض لأعواض. والمحبة سمة الطائفة وعنوان الطريقة ومعقد النسبة"[14]، فالمحبة تحقق الفناء في الذات الإلهية وهي الطريق لتحقيق المعرفة والتقرب من الله تعالى.

وقد قسم الهروي المحبة على ثلاث درجات هي[15]:

- الدرجة الأولى: محبة تقطع الوسواس وتلذّ الخدمة وتسلى عن المصائب وهي محبة تنبت من مطالعة المنة وتثبت باتباع السنة وتموا على الإجابة للفاقة.
- الدرجة الثانية: محبة تبعث على إيثار الحق على غيره وتلهج اللسان بذكره وتعلق القلب بشهوده. وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر في الآيات والارتياض بالمقامات.
- الدرجة الثالثة: محبة خاطفة تقطع العبارة وتدقق الإشارة ولا تنتهي بالنعوت. وهذه المحبة هي قطب هذا الشأن وما دونها محاب نادت عليها الألسن وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول.

هذا ويرى الطوسي أن أهل المحبة على ثلاثة أحوال[16]:

- الحال الأولى من المحبة: محبة العامة، يتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم.
- والحال الثانية من المحب: يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته، وهو حب الصادقين والمتحققين.
- وأما الحال الثالثة من المحبة فهو محبة الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة.

ومما سبق طرحه يمكن القول: إن المحبة هي حال من الأحوال التي يهبها الله لعبده وهو في طريق التصوف، "ذلك أن الصوفي بغير المحبة ما كان يسعى إلى شق طريق التصوف الذي يبدأ بالتوبة وغيرها. إن المقامات التي يتخطاها الصوفي درجة فدرجة لا يمكن أن يعبرها السالك أو المريد إلا إذا كان الله قد منحه حال المحبة، فالمحبة هنا فضلا عن أنها مكافأة للصوفي من عند الله فإنها تعدّ أيضا باعثا له أن يتحرك نحو المحبوب، وباعثا له على أن ينفض عن نفسه شوائب العالم المادي"[17]، وهذا ما جعل من المحبة ركنا أساسا وركيزة لنيل المعرفة في طريق الحق.

3. التعريف بأبي الحسن الششتري:

أبو الحسن الششتري هو "علي بن عبد الله النميري الششتري اللوشي يكنى أبا الحسن. والنميري نسبة إلى بني نمير، بطن من بطون هوازن. والششتري نسبة إلى ششتر وهي قرية بواد آش بالأندلس"[18].

ولد الششتري سنة (610هـ-1212م)[19] عاش في القرن السابع الهجري أي في أواخر عصر الموحدين وشهد فيه أهم الأحداث السياسية والثقافية والاجتماعية، لم تذكر كتب التراجم شيئا كبيرا عن عائلة الششتري وعن طريقة عيشه قبل التصوف وما وصلنا عنه إلا "أنه كان من الأمراء وأولاد الأمراء"[20]. وقد ساعده هذا في تشكيل قاعدة علمية وثقافية حيث بدأ حياته "بحفظ القرآن منذ صغره ثم سلك مسالك علماء المسلمين في دراستهم. فدرس الفقه، ثم انتقل إلى الحكمة، وانتهى به المطاف إلى دراسة طرق الصوفية علما وعملا"[21].

كما اهتم الششتري بالعديد من مصادر الثقافة ومن ذلك اهتمامه "بالعلوم العقلية من علم الكلام والفلسفة الإسلامية، المشرقية والمغربية، واليونانية مشائية وأفلاطونية وحكمة الهرامسة وعلم الأسماء والحروف"[22]، كما كان على إحاطة كبيرة بعلوم الشريعة والفقه ما جعل له قاعدة دينية متينة.

وإلى جانب اهتمامه بعلوم الدين والشريعة اهتم الششتري أيضا بدراسة اللغة وآدابها، كما اهتم بالشعر القديم الشعبي، وخاصة الموشحات والأزجال التي شاعت في عصره، وأثرت فيه، مما جعل ديوانه يحفل بالكثير منها، وقد عبّر بها على موضوعات صوفية مختلفة[23]، وقد كان له السبق في إدخال موضوعات التصوف على فنّ الزجل الأندلسي.

كما اهتم الششتري بتكوين ثقافة صوفية إذ نجد أنه تأثر بجميع التيارات الثقافية التي ظهرت في الأندلس وغيرها، ومن ذلك التياران الصوفيان اللذان ظهرا في الساحة آنذاك تيار يسير وفق الشريعة الإسلامية، والآخر تيار متفلسف مخالف للعقيدة، أباح لنفسه ما لم يبحه الدّين[24]، وقد نظم الششتري العديد من الأشعار للحديث عن الصراع القائم بين هذين التيارين حيث حاول فيها شرح الطريقة الصوفية وتقديم المذهب الذي يسير عليه أصحاب هذه الطريقة.

كان الششتري على درجة كبيرة من المعرفة والاطلاع الواسع على التيارات الفكرية وبذلك تعددت مصادر ثقافته ومشاربه وشيوخه، ومن أساتذته الذين أفاد منهم وأخذ عنهم بطريقة مباشرة عبد الحق بن سبعين فقد كان الششتري من أحسن طلابه لأنه تمكن من الوصول وتفسير المعارف التي عجز غيره الوصول إليها، وكثيرا ما أشار إليه الششتري في مؤلفاته الشعرية والنثرية لأهميته وتأثيره البارز على حياته الفكرية والذوقية، ودوره الفعال في بناء صرح التصوف الفلسفي في الغرب الإسلامي[25]. ومن الأساتذة المباشرين أيضا نجد ابن سراقة (592هـ-662هـ) الذي عرف عليه الششتري على يديه أول طريق صوفي[26].

ومن أساتذته غير المباشرين أبو مدين الغوث ومحي الدين بن عربي[27] اللذين كان لهما الفضل الكبير في التوجه الصوفي للششتري، وقد تأثر بمذهب كل منهما وخاصة مذهب ابن عربي فقد وظف نظرية الخيال في العديد من أشعاره كما نجد له تخميسا لقصيدة ابن عربي في الشق الثاني من ديوانه ما يبين تأثره الواضح به.

ونجد أيضا شيخه السهروردي (549هـ-587هـ) صاحب "عوارف المعارف"، هذا ولا ننسى مشايخ التصوف السني المتأخرين الذين اعتبرهم الششتري من شيوخه "كأبي الحسن الشاذلي" (ت 656هـ) و "أبي العباس المرسي"(ت 668هـ) و "ابن عطاء الله الإسكندري (ت 709هـ)[28] وغيرهم الذين كان لهم الأثر الكبير في توجه الششتري والسير في طريق الحق واتباع مذهب التصوف.

كما أن للششتري تلامذة مباشرين كانوا يلازمونه في رحلاته ويتبعون منهجه ويأخذون بأقواله ومن بينهم "أحمد يعقوب بن مبشر" و "أبي الحسن بن علال"[29] وغيرهم الكثير إلا أن كتب التاريخ لم تذكر لنا أغلب أتباع الششتري من تلامذة ومريدين.

أما تلامذته غير المباشرين والذين أخذوا عنه عن بعد نجد منهم في الأندلس "لسان الدين بن الخطيب" (ت 776ه)، الذي اتبع طريقة الششتري الصوفية حيث وأنشد أشعارا على منهجه، ومن المشرق الإسلامي "عبد الغني النابلسي" (ت 1143ه) الذي سلك طريقته الصوفية والشعرية وألف رسالة في الدفاع عنه سماها "رد المفتري عن الطعن في الششتري"[30].

ومن تلامذته أيضا نذكر "ابن عباد الرندي" (ت 790ه) من المتصوفة المغاربة ذوي الاتجاه السني المعتدل، الذي تأثر تأثرا شديدا بآراء الششتري، خاصة منها الصوفية الزهدية والصوفية السلوكية عامة، دون آرائه في وحدة الوجود، وأنشد على منوال قصائد الششتري الخمرية خاصة الكثير من القصائد، ونجد "محمد الحراق" (ت1845م) الذي تأثر به واعتبر تلميذا غير زمني له، وذلك للتشابه الكبير الحاصل بينهما من حيث أسلوب ومضمون توشيحاتها وأزجالها وخاصة في موضوع الحبّ الإلهي. وأيضا "ابن عجيبة الحسني" (ت 1311م) من أبرز المعجبين بالششتري، فقد قام بتحليل بعض نصوصه الشعرية الصوفية وعلق عليها[31].

توفي الششتري يوم الثلاثاء 17 صفر 668ه[32]، فقد شعر بالمرض خلال رحلته الأخيرة إلى مصر، واشتدت علّة مرضه بالقرب من دمياط، في مكان يقال له الطينة، وقد سأل الششتري مريديه عن اسم المكان، فلما قالوا له الطينة، قال حنّت الطينة إلى الطينة، وتوفي فحمله مريدوه إلى دمياط فدفن بها[33].

خلّف الششتري وراءه بعض المؤلفات النثرية إلى جانب ديوان يضم قدرا كبيرا من القصائد والموشحات والأزجال، من أهم كتبه: كتاب "العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعلمه ويعتقده إلى وفاته"، وكتاب "المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية"، وكتاب "الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة"، وكتاب "المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية"، وكتاب "الرسالة العلمية"[34].

4. حال المحبة عند الششتري:

يعدّ الششتري من أشهر متصوفي القرن السابع الهجري الذي حاول من خلال أشعاره نقل العدد من التجارب الروحية التي كان يعيشها خلال تجربته الصوفية، من أجل تقريبها من المتلقي، ومن ذلك حال المحبة التي كانت لها المساحة الكبرى في أشعار الششتري فقد استعملها في قصائده العمودية وفي موشحاته وأزجاله، ومن المواضع التي تحدث فيها الششتري عن حال المحبة في قصائده نجد قوله[35]:

إذا لم يكن معنى حديثك لي يدرى ... فلا مهجتي تشفى ولا كبدي تروى
نظرت فلم أنظر سواك أحبه ... ولولاك ما طاب الهوى للذي يهوى
ولما اجتلاك الفكر في خلوة الرضا ... وغيبت قال الناس ظلت بي الأهوا
لعمرك ما ظل الحب وما غوى ... ولكنهم لما عموا أخطئوا الفتوى
ولو شهدوا معنى جمالك مثلما ... شهدت بعين القلب ما أنكروا الدعوى

مجلد: 12، عدد: 4 ديسمبر 2023
E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

نلمس في هذه القصيدة جانبا وجدانيا ظاهرا من خلال الألفاظ التي وظفها الششتري واستعمال لغة مفعمة بالعاطفة والوجدان، فالحب عند الصوفية هو حالة روحية عظيمة بالغة في الأهمية لكل سالك لطريق الحق ذلك أنها تبرز صدق توجهه وصفاء مشاعره اتجاه معبوده، فيتم نقل هذه التجربة بمشاعر صادقة وتعبير دقيق حتى يبرز هذه الأهمية من خلال أشعاره، فالششتري بدأ هذه القصيدة التي تدور حول موضوع المحبة الإلهية بتبيان أهمية إدراك المعنى وتحقيق المعرفة أثناء المحبة لأنها السبيل الذي يقود للمحبة والفناء في المحبوب والقدرة على مكابدة عناء هذا الحب، كما يبين الششتري في هذه الأبيات مذهبه في عدم الالتفات لكلام الناس لأنهم لا يدركون قيمة هذه الحالة ولم يشهدوها لأنها لا تدرك بالبصر إنما بعين القلب وهي البصيرة التي يتميّز بها الصوفي عن غيره.

وتحدث الششتري أيضا في موضع آخر عما يكابده من الناس في محبته وفنائه في محبوبه فيقول[36]:

زارني من أحب قبل الصباح	فحلالي تهتكي وافتضاحي
وسقاني وقال نم وتسلى	ما على من أحبنا من جناح
فأدر كأس من أحب وأهوى	فهوى من أحب عين صلاح
لو سقاها لميت لعاد حيا	فهي راحي وراحة الأرواح
لا تلمني فلست أصغي لعذل	لا ولو قطع الحشا بالصياح
ما أحيلي حديث ذكر حبيبي	بين أهل الصفا وأهل الفلاح
قد تجلى الحبيب في جنح ليلي	وحباني بوصله للصباح

استعمل الششتري في هذه القصيدة تصويرا دقيقا لحالة الحبّ التي يعيشها مع محبوبه مستعينا في ذلك بالمصطلحات التي يوظفها الشعراء العذريون، مع إضافة بعض الرموز الصوفية التي أضفت بعدا إيحائيا ودلاليا على القصيدة ومن ذلك رمز الخمرة التي يستعملها الشعراء الصوفيون للدلالة على المعرفة والحب الإلهي، كما تحدث في هذا الأبيات عن أن حالة الحب والهوى التي يعيشها هي عين الصلاح والطريقة الصحيحة للتقرب من الله مع عدم الاكتراث لكلام العذل الذين يريدون إبعاده عن هذه الحالة الروحية التي يعيشها، كما جاءت معظم أبيات القصيدة للدلالة على وصول الششتري إلى الغاية التي يصبو إليها كل سالك وهي نيل الوصل والقرب من الله تعالى، وقد حدد الشاعر هنا وقت زيارة محبوبه له وهو (قبل الصباح) الوقت الذي لا يسهره إلا من يعاني المرض أو ألم البعد والهجران، وقد وصل الششتري إلى مراده في هذا الوقت ونال وصال محبوبه إلى غاية الصباح.

وتحدث الششتري في مواضع كثيرة من شعره عن كلام الناس واتهامه له بالجنون بعد أن ترك ماله وجاهه ابتغاء نيل رضا الله عزّ وجلّ والقرب منه، فيقول[37]:

رضي المتـيم في الهـوى بجنونـه خلـــوه يفـــنى عمـــره بفنونـــه
لا تعــذلوه فلــيس ينفـع عــذلكم ليس السلوّ عن الهوى مـن دينـه
قسما بمـن ذكر العقيـق مـن أجله قســـم المحـــب بحبـــه ويمينـــه
مــالي ســـواكم غــير أني تائــب عــن فــاترات الحــب أو تلوينــه
مــالي إذا هتــف الحمــام بأيكــة أبــدا أحــن لشــجوه وشجونــه
وإذا الــبكاء بغــير دمــع دأبــه والصــبّ يجــري دمعــه بعيونــه

ربط الششتري في هذه الأبيات بين حال المحبة والفناء في الذات الإلهية فلم يكتف بذكر هوى محبوبه وما يعانيه في هذا الحب، إنما تعمق الوضع وأصابته مشاعر قوية أفنت روحه ما يجعل من حبه لمعبوده له قيمة كبيرة لا تقاس بغيرها، كما يصرح الشاعر بأن هذا الحب الذي يجمع بينهما لا يمكن لأي عاذل أن يفسده أو أن يفرق بينهما لشدة تعلقه به وفنائه فيه.

كما وظّف الششتري حال المحبة في أنواع شعرية أخرى في ديوانه من ذلك موشحاته التي نجدها مشحونة بهذا الموضوع، خاصة وأنه يتناسب من المواضيع التي تناسب روح الغناء والتلحين فنجده يقول في موشح له يتحدث فيه عن وصل محبوبه له[38]:

زارني حبّي وطابت أوقاتي وسمـــع لي الحبيـــب
وعفــا عــن جميــع زلاتي عـلى غـيظ الرقيـب

زارني منيــتي وزال البــاس وسمـــع بالوصــــال
وحضر حضرتي ودار الكاس وبلغـــت الآمــــال
وشربنـا وطابـت الأنفـاس مــن مــدام حــلال

يتحدث الششتري في هذا المقطع الشعري عن الحب الإلهي مستعملا في ذلك الخمرة العرفانية التي تعد رمزا إيحائيا للدلالة عن المعرفة، وكما ذكر سابقا أن المحبة والمعرفة هما وجهان لغاية واحدة فالمحبة هي سبيل المعرفة والمعرفة هي سبيل المحبة، وقد حاول الششتري من خلال هذه الموشحة طرح هذا الفكرة بأسلوب غزلي رقيق وبألفاظ مستوحاة من الغزل العذري حتى تكون قريبة من فهم المتلقي لاستيعاب الحالة التي يعيشها الشاعر أثناء تجربته.

ويقول الششتري في موشح أخر له[39]:

حــــبي مـــــالو ثاني ولا عليـــه رقيـــب
دنا مـــــــني وأدناني حـــاضر لا يغيـــب

رضـيت بالذي يصـنع وأسـندت أليـه
وبـه نصـل وبـه نقطـع وبـه نثـني عليـه
وبـه نـروى بـه نسـمع وروحي بـين يديـه

جاءت هذه الموشحة للحديث عن الحب الإلهي والتعبير عن تجربة الششتري خلال إدراك حال المحبة، فقد استهل الموشحة بمطلع يؤكد فيه وحدانية محبوبه وأنه هو الوحيد الموجود في قلبه ولا مكان لسواه، كما تحدث الششتري عن خصوصية العلاقة التي تربط بينه وبين محبوبه، فالمحبة عند الصوفية هي أن تشعر بقرب الحبيب وإن لم تدركه بالبصر فالإدراك والقرب من المحبوب يكون بالقلب والفناء فيه وهذا ما حاول الششتري عرضه في هذه الأبيات.

ويؤكد الششتري على مسألة الفناء وضرورتها في حال المحبة لأن الفناء من الصفات التي تمنح هذه العلاقة الخاصة نوعا من المصداقية، والتوجه إلى الله بقلب سليم بعيد عن كل الشهوات والملذات التي تبعد العبد عن مولاه وتشتت صفو هذه علاقتها، ومن ذلك يقول الششتري في مطلع موشحة له[40]:

الحـبّ أفنـاني وكنـت حيّ مـذ نظـرت عيـني جهـرا إليّ
أنا قـد فشـا سرّي بـلا مقـال وقـد ظهـر عيـني بـذا المثـال

نـرى وجـود غـيري مـن المحـال

كما وظف الششتري حال المحبة في أزجاله التي يعد الرائد الأول لإدخال غرض التصوف على فن الأزجال، فقد حاول الششتري من خلالها نقل تجاربه الروحية بلغة بسيطة وبفن نشأ عن العامة حتى يتسنى لهم فهم مذهبه واستيعاب توجهاته الصوفية، وقد حفلت أزجال الششتري بالتغني بعظمة حبه وشدة تعلقه بمحبوبه ومن المواضع التي استعمل فيها الششتري حال المحبة موضوعا لأزجاله نجد قوله[41]:

إدلّل يا قلبي وافرح حبيبك حضر
واتنعم بذكر مولاك وقص الأثر
واتهنى وعش مدلل ما بين البشر

دعوني دعوني نذكر حبيبي بـذكروا نطيـب
الله الله معـي حـاضر في قلـبي قريـب

تعدّ المحبة من الأحوال الجليلة عند الشعراء الصوفية باعتبارها من الهبات التي يمن بها الله على عبده، فعلى السالك لطريق الحق أن يقيم على الذكر حتى يهبه الله ما يقربه إليه ويكسب به الرضا، وقد ركزّ الششتري في هذه القطعة الزجلية على مسألة الذكر التي تعدّ مفتاحا لنيل هذه الهبة العظيمة، والعيش في كنف هذا الحب متنعما ومدللا وفرحا بالمكانة التي نالها من خلال ذكر حبيبه وكسب رضاه.

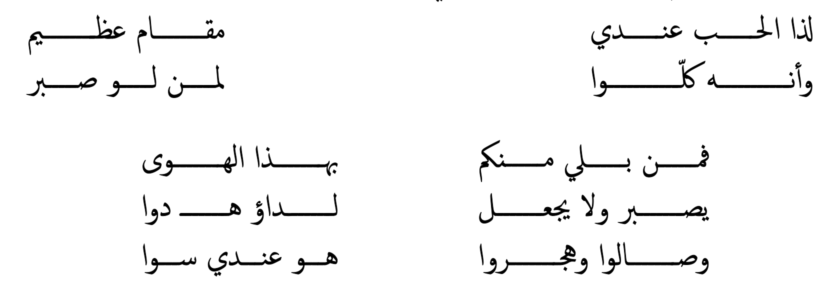
ويقول الششتري في موضع آخر[42]:

الحبيــــب عرفتـــو — وأنا منـــه خـــايف
مــــا يحبــــك إلا — من هـو بيـك عارف

مــــذ عرفــــت ربي — زالـت عـني الأغيـار
وانشـــرح لـــي قلبـــي — وبـــدت لي أسرار
وأنا طـــول حيــــاتي — في نــــور وأنـــوار

يربط الششتري في هذه القصيدة الزجلية بين المحبة الإلهية وبين المعرفة، فالحب عند المتصوفة لا يحدث إلا من خلال المعرفة والمعرفة لا تتحقق إلا من خلال الحب، فالشاعر هنا يؤكد للسالك أو المريد ضرورة الوصول إلى المعرفة الحقيقية حتى ينال الحب ويحققه، فهذه المعرفة كفيلة بنقل السالك لمختلف الدرجات التصاعدية للمحبة والتي يصل من خلالها لنيل وصال الله جلّ وعلا.

وتحدث الششتري عن مكانة المحبة الإلهية في نفسه فيقول[43]:


لذا الحــــب عنـــدي — مقــــام عظـــــيم
وأنـــــــه كلّـــــــوا — لمـــن لـــو صـــبر

فمـــن بـــلي مــــنكم — بهـــــذا الهــــوى
يصــــبر ولا يجعـــل — لـــــداؤ هـــــ دوا
وصـــــالوا وهجــــروا — هــو عنـدي ســوا

حاول الششتري من خلال هذه الأبيات تبيان أهمية الحب عنده كما بيّن أن الآلام والمشقة ستكون ملازمة له وابتلاء لكل محب، لذا يجب عليه الالتزام بالصبر فهو الحل الوحيد لنيل الرضا والقرب من الله تعالى، وهذا النوع من الشعر في تصوير معاناة المحبة من قبل الشعراء الصوفيين لا يكون الغرض منه هو الشكوى والتذمر من هذا الحب إنما هو تعبير عن صدق التجربة والعاطفة والمعاناة التي يحسها من هجر محبوبه ومحاولة منه لكسب الوصال.

خاتمة:

بناء على الطرح السابق في هذه الورقة البحثية تم التوصل إلى مجموعة من النتائج التي يمكن حصرها فيما يلي:

- تعدّ المحبة الإلهية من الأحوال الصوفية التي يهبها الله تعالى لعباده الذاكرين دون التفكير فيها أو محاولة اكتسابها.

مجلد: 12، عدد: 4 ديسمبر 2023
E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

- وظف أبو الحسن الششتري حال المحبة في مختلف الألوان الشعرية الموجودة في ديوانه وهذا ما يدل على مكانة هذا الحال في نفسه وفي تجربته الصوفية.
- حاول الششتري من خلال أشعاره تصوير حال المحبة بلغة وجدانية وعاطفية مستوحاة من لغة الحب العذري، وذلك من خلال استعمال مصطلحات ومعاني الشعراء العذريين للتعبير عن هذه التجربة الروحية الخاصة، مع الاستعانة بتوظيف الرموز الصوفية التي أضافت بعدا دلاليا وإيحائيا على قصائده.
- تحدث الششتري في مختلف أشعاره التي تناول فيها حال المحبة عن قضية العذل التي تعد من أهم القضايا المشتركة بين الشعر الصوفي والشعر العذري، وقد شكّلت هذه القضية ركنا أساسيا في أشعاره.

هوامش:

[1]- ابن منظور: لسان العرب، (د ت)، دار المعارف (القاهرة)، ص 1057.
[2]- الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، (د ت)، دار الفضيلة (القاهرة)، ص 72.
[3]- المصدر نفسه، ص 72.
[4]- أبو نصر سراج الطوسي: اللمع (1960م)، دار الكتب الحديثة (مصر)، مكتبة المثنى (بغداد)، ص 66.
[5]- الجنيد البغدادي: تاج العارفين، (2005م)، دار الشروق (القاهرة)، ص 97.
[6]- أبو نصر سراج الطوسي: اللمع، ص 66.
[7]- محمد بن أبي بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، (1986م)، مكتبة لبنان (بيروت)، ص 51.
[8]- مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، (1994م)، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، ص 130.
[9]- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، (1984م)، الدار التونسية للنشر (تونس)، ج 3، ص 225.
[10]- سعاد الحكيم: المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة، (1981م)، دندرة للطباعة والنشر (بيروت)، ص 303.
[11]- أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، (1994م)، مكتبة الخانجي (القاهرة)، ص 79.
[12]- الجنيد البغدادي: تاج العارفين، ص 97.
[13]- المصدر نفسه، ص 98.
[14]- عبد الله الأنصاري الهروي: منازل السائرين، (1988م)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ص 88، 89.
[15]- المرجع نفسه، ص 89، 90.
[16]- أبو نصر سراج الطوسي: اللمع، ص 86، 87.
[17]- فيصل بدير عون: التصوف الإسلام الطريق والرجال، (1983م)، مكتبة سعيد رأفت (د م)، ص 125.
[18]- أبو الحسن الششتري: الديوان، (1960م)، دار المعارف(الإسكندرية)، ص 6.
[19]- المصدر نفسه، ص 6.

مجلد: 12، عدد: 4 ديسمبر 2023
E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

[20]- محمد العدلوني الإدريسي: أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، (2005م)، دار الثقافة (الدار البيضاء)، ص 60.
[21]- أبو الحسن الششتري: الديوان، ص 6.
[22]- محمد العدلوني الإدريسي: أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 62.
[23]- المرجع نفسه، ص 64-65.
[24]- المرجع نفسه، ص 68.
[25]- المرجع نفسه، ص 71.
[26]- المرجع نفسه، ص 72.
[27]- المرجع نفسه، ص 73.
[28]- المرجع نفسه، ص 78.
[29]- أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، (1979م)، دار الآفاق الجديدة (بيروت)، ص 241.
[30]- كروم بومدين: أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، (2011م)، دار التوفيقية (الجزائر)، ص 23، 24.
[31]- أبو الحسن الششتري: الرسالة الششترية أو الرسالة العلمية في التصوف، (2014م)، دار الثقافة (الدار البيضاء)، ص 22.
[32]- يوسف زيدان: شعراء الصوفية المجهولون، (1996م)، دار الجيل (بيروت)، ص 64.
[33]- لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، (1977م)، مكتبة الخانجي (القاهرة)، ص 215، 216.
[34]- أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (1988م)، دار صادر (بيروت)، ص 185،186.
[35]- الديوان، ص 23، 24.
[36]- الديوان، ص 35.
[37]- الديوان، ص 77.
[38]- الديوان، ص 86، 90.
[39]- الديوان، ص 94.
[40]- الديوان، ص 287.
[41]- الديوان، ص 88.
[42]- الديوان، ص 194، 195.
[43]- الديوان، ص 234، 235.

قائمة المصادر والمراجع:

ـ القرآن الكريم برواية ورش لقراءة الإمام نافع
1. أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، (1988م)، دار صادر (بيروت).

2. أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، تح: أرثر جون أربري، (1994م)، مكتبة الخانجي (القاهرة).
3. الجنيد البغدادي: تاج العارفين، تح: سعاد الحكيم، (2005م)، دار الشروق (القاهرة).
4. أبو الحسن الششتري: الديوان، تح: علي سامي النشار، (1960م)، دار المعارف(الإسكندرية).
5. أبو الحسن الششتري: الرسالة الششترية أو الرسالة العلمية في التصوف، تح: محمد العدلوني الإدريسي، (2014م)، دار الثقافة (الدار البيضاء).
6. سعاد الحكيم: المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة، (1981م)، دندرة للطباعة والنشر (بيروت.
7. الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح: محمد الصديق المنشاوي، (د ت)، دار الفضيلة (القاهرة).
8. أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، (1979م)، دار الآفاق الجديدة (بيروت).
9. فيصل بدير عون: التصوف الإسلام الطريق والرجال، (1983م)، مكتبة سعيد رأفت (د م).
10. كروم بومدين: أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، (2011م)، دار التوفيقية (الجزائر).
11. لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: عبد الله عنان، (1977م)، مكتبة الخانجي (القاهرة).
12. عبد الله الأنصاري الهروي: منازل السائرين، (1988م)، دار الكتب العلمية (بيروت).
13. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، (1994م)، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم.
14. محمد بن أبي بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، (1986م)، مكتبة لبنان (بيروت).
15. محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، (1984م)، الدار التونسية للنشر (تونس)، ج 3.
16. محمد العدلوني الإدريسي: أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، (2005م)، دار الثقافة (الدار البيضاء).
17. ابن منظور: لسان العرب، (د ت)، دار المعارف (القاهرة).
18. أبو نصر سراج الطوسي: اللمع تح: عبد الحليم محمود، (1960م)، دار الكتب الحديثة (مصر)، مكتبة المثنى (بغداد).
19. يوسف زيدان: شعراء الصوفية المجهولون، (1996م)، دار الجيل (بيروت).